مكانة ضياء الدين بن الأثير

في تاريخ الأدب العربي

الأستاذ فريد جحا

مقدمة :

١ ـ تحدد مقالتنا هذه مكانة ضياء الدين بن الأثير في تاريخ الأدب العربي ، على أن نفهم الأدب ، كما فهمه الأجداد ، بالمعنى العام ، « أي الأخذ من كل علم بطرف » ، لأننا سنراه ، أديباً ، وناقداً ، وعالم بلاغة ، وهي ، على كل حال ، صفات ذات صلة بعيدة ، أو قريبة بالأدب ، بمعنييه العام والخاص .

وابن الأثير هذا هو أبو الفتح نصر الله بن محمد الذي اشتهر بلقبه (ضياء الدين) ، وهو ثالث إخوة يُعَدُّ كل منهم فخراً لأبيه وأسرته ، فكيف والثلاثةُ أبناءُ والدٍ واحد ، وأسرة واحدة ، وكل منهم كان مجلّياً فيما اشتُهر به . فالأول : أبو السعادات المبارك ابن أبي الكرم ، محمد بن محمد الملقب بمجد الدين بن الأثير (٥٤٤ ـ ٦٠٦ هـ) محدّث ومفسّر ، والثاني : أبو الحسن علي بن محمد الملقب بعز الدين (٥٥٠ ـ ٦٣٠ هـ) مؤرخ كبير ، أما الثالثُ ضياء الدين فهو الذي نخصُّه بهذه الدراسة المفصلة .

٢ ـ ولد ضياء الدين أبو الفتح نصر الله عام ٥٥٨ هـ / ١١٦٣ م في جزيرة ابن عُمَر ، ولذلك ينسب إليها فيقال عنه (الجزريّ) ، وجزيرة ابن عمر : بلد فوق الموصل بينهما ثلاثة أيّام ، ولها رستاق مخصب واسع الخيرات ، ويرى ياقوت « أنّ أول من عمرها الحسنُ بن عمر بن خطاب

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

التغلبيّ ، وكان له إمرةٌ في الجزيرة وذكرٌ ، قرابة سنة (٢٥٠ هـ)[١] » أما ابنُ خلكان [٢] فيرجع التسمية الى عديدين بينهم ما اعتقد أنه الصوابُ وهو عبد العزيز بن عمرَ الذي بناها فأُضيفت إليه ... وتقع المدينة اليوم في تركية ، بين المدن العربية التي تنازل عنها الحلفاء لتركيا ، طمعاً في إيقاف الثورات التي اتقدت ضدهم في بلاد الشام والعراق في عامي ١٩١٩ و ١٩٢٠ م .

ولدُ ضياء الدين في هذه البلدة[٣] ، وتوفي في عام ٦٣٧ هـ / ١٢٣٩ م ببغداد بعد أن عاش حياة نشاط متعدد الوجوه ، في مدن الشام والعراق ومصر .

انتقل به والده إلى الموصل ، حيث عمّق دراسته ، ولما شبَّ قصد السلطان صلاح الدين الأيوبي في دمشق سنة ٥٨٧ هـ (١١٩١ م) فجعله في خدمته بضعة أشهر ، ثم صار الى خدمة ولده الملك الأفضل نور الدين ، فاستوزره هذا الأخير ، ولما تُوفي صلاح الدين استقلّ الأفضلُ بملكة دمشق ، واستقلّ ضياءُ الدين بالوزارة ، ورُدّت اليه أمور الناس .

وجرت للملك الأفضل وقائعُ مع أخيه العزيز صاحب مصر ، ومع عمه الملك العادل ، اللذين اتفقا على غزو دمشق واستنقاذها من يده ، وتم لهما ذلك سنة ٥٩٢ هـ (١١٩٥ م) فاستوليا عليها ، وأُقطعا الملك

---

(١) معجم البلدان ، مادة (جزيرة ابن عمر) .

(٢) ابن خلكان ، وفيات الأعيان جزء ٢ ص ١٥٨ [انظر وفيات الأعيان (تح . الدكتور إحسان عباس) ٣ : ٣٤٩ ـ ٣٥٠ / ترجمة عز الدين ابن الأثير الجزري ، ٤ : ١٤٣ / ترجمة مجد الدين ابن الأثير الجزري / المجلة] .

(٣) تلتمس سيرة ضياء الدين في الكتب التي ترجمت له قديماً وحديثاً ، وأقدمها في وفيات الأعيان لابن خلكان ، جـ ٢ ص ١٥٨ وما بعد ، وأوسعها لدى زغلول سلام في كتابه عن ضياء الدين بن الأثير ، الجزء ٣٦ من سلسلة نوابغ الفكر العربي ص ٢٩ ـ ٤٨ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الأفضل (صرخد) بدلاً عنها ، فصار إليها ، وأقام بها ، ولحق به ابن الأثير بعد أنْ فرَّ من دمشق متخفيا .

ثم توفي العزيز صاحب مصر سنة ٥٩٥ هـ (١١٩٨ م) ، وخلفه ابنُه المنصور وهو في الثامنة من عمره ، فاستدعى رجالُ الدولة عمه نور الدين (الأفضل) من صرخد ليكون وصياً عليه ، ونائباً عنه ، فحضر وتبعه ابنُ الأثير بعد عام . نشبت الحرب بين نور الدين وعمه الملك العادل صاحب دمشق ، فاضطُر (الأفضل) إلى مغادرة مصر سنة ٥٩٦ هـ ، وتبعه ابن الأثير بعد ذلك الى سميساط ، وعمل في خدمته مدة ، ثم فارقه في عام ٦٠٧ هـ (١٢١٠ م) ، واتصل بأخيه الملك الظاهر غازي صاحب حلب ، فلم يطل مقامه عنده وخرج مُغَاضِبا . وعاد الى الموصل ، فلم يستقم حاله ، فورد إرْبِل ، ثم تركها الى سنجار ، ثم عاد الى الموصل ، واتخذها دارَ إقامة وكتب فيها لصاحبها ناصر الدين محمود بن الملك القاهر ، وبقي في خدمته حتى توفي في بغداد في أثناء رحلة ، سَفَر فيها له لدى الخليفة العباسي .

٣ ـ خلّفَ ضياء الدين عدّةَ مؤلفاتٍ ، نذكر منها[٤] :

آ ـ الاستدراك في الرد على رسالة ابن الدهان .

ب ـ الجامع الكبير في صناعة المنظوم من الكلام والمنثور .

جـ ـ رسائل ضياء الدين بن الأثير .

د ـ المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر .

هـ ـ مجموع اختار فيه من شعر أبي تمام ، والبحتري ، وديك الجن ، والمتنبي .

---

(٤) استندنا في ذكرها الى ترجمة ضياء الدين ابن الأثير في وفيات الأعيان ، والى ما ذكره ابن الأثير في كتبه وفي رسائله .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

و ـ الوشي المرقوم في حل المنظوم .

وأهمُّ هذه الكتب كتابه المشهور المثل السائر ، وقد طبع عدة مرات في مصر وبيروت ، وكان أحسنَها تلك التي أشرف على طباعتها في أربعة أجزاء الدكتوران الحوفي وطبانة بين سنتي ١٣٨٠ ـ ١٣٨٤ هـ / ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ م، وادعيا فيها التحقيقَ ، وليس فيها من ذلك إلاّ الشيء اليسير[٥] .

٤ ـ وضياء الدين بن الأثير متعدد الجوانب :

فهو أولاً سياسي وزر لطائفة من الملوك ، إلاّ أنه لم يوفق في سياسته ولا سيما في دمشق ، فقد « أساء العشرة مع أهلها وهمُّوا بقتله ، فأخرجه الحاجب محاسن بن عجم مستخفياً في صندوق مقفل عليه[٦] » . وكان ذلك منه أيضاً في القاهرة ، فقد « خاف على نفسه من جماعة كانوا يقصدونه ، فخرج منها مستتراً » .[٧] كذلك لم تطل إقامته لدى الملك الظاهر صاحب حلب « لأن أمره لم ينتظم عنده ، فخرج مغضباً » .[٧]

ولقد ذكر من سوء سياسته مثلاً [٨] « أنّه حسّن للأفضل أن يطرد أمراء أبيه ، وأكابر أصحابه ، ويستبدل بهم غيرهم ، ففارقه جماعة منهم ، وصاروا إلى الملك العزيز بالقاهرة ، فشملهم بالرعاية والاكرام . وكان من

---

(٥) مكتبة نهضة مصر بالقاهرة ١٣٨٠ ـ ١٣٨٤ هـ / ١٩٦١ ـ ١٩٦٥ م .

(٦) ابن خلكان ـ المصدر السابق ص ١٥٨ .

(٧) ابن خلكان ـ المصدر السابق ص ١٥٨ ، ويذكر ابن خلكان أنّ له رسالةً طويلة شرح فيها كيفية خروجه مستخفياً [وفيات الأعيان (تح الدكتور إحسان عباس) ٥ : ٣٩٠ ـ ٣٩١ / المجلة] .

(٨) مقال بطرس البستاني ، في دائرة المعارف لفؤاد افرام البستاني المجلد الثاني ص ٣٢٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

بينهم القاضي الفاضل ، الذي كان وسيطه للوصول الى صلاح الدين ، وتقديمه له » . ولعلّ هذا ما حدا بأخيه عز الدين الى عدم ذكره في كتاب الكامل ، في جميع ما أورد من أخبار الملك الأفضل ، والملك العادل والملك العزيز[٩] .

٥ ـ كانت دراسة ضياء الدين متنوعة ، فاذا كنا لانعرف أحداً من أسماء شيوخه ، فاننا نعلم أنه درس في الموصل ، وكانت عامرةً بالعلماء ، وبالمدارس ، ونعلم أنه حفظ القرآن ، وكثيراً من الأحاديث النبوية ، وطرفاً صالحاً من اللغة والنحو والبيان ، وشيئاً غير يسير من أشعار العرب . ولقد ذَكر في المثل السائر ، أنه وقفَ من الشعر على كل ديوان مطبوع وأنفد شطراً من العمر في المحفوظ والمسموع ، فألفاه بحراً لا يوقف على ساحله فاقتصر على ما تكثر فوائده ، واكتفى بشعر أبي تمام والبحتري والمتنبي ، فهؤلاء الثلاثة عنده « لاتَ الشعر وعُزّاه ومَناتَه » .[١٠] فروى لهم أكثر مما روى لغيرهم ، واستفاد من فصاحة أقوالهم وبلاغة معانيهم .

وليس ببعيد أن يكون قد تتلمذ على أساتذة أخيه المؤرخ وهم : « أبو الفضل خطيب الموصل ، وأبو الفرج يحيى الثقفي ، ومسلم بن على السيحي ، ومعهم ابن سويدة التكريتي ، وابن أفضل الزمان ، وابن رواحة ... وهم الذين درس المؤرخ عليهم الفقه والحساب واللغة والحديث والمنطق والهيئة وغيرها » .[١١] .

٦ ـ وهو كما رأينا مصنّف ، ومؤلفٌ كتب ، ولقد خلّف لنا مؤلفاتٍ

---

(٩)مقال بطرس البستاني ، المصدر السابق ص ٣٢٦ .

(١٠) المثل السائر جـ ٢ ص ٣٦٨ .

(١١) عبد القادر أحمد طليمات ، ابن الأثير الجزري ، من سلسلة أعلام العرب ، الجزء ٨٣ ص ٢٠ و ٢١ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

كثيرة سميناها منذ قليل وهي مؤلفات تدل على معرفة واسعة ، وثقافة شاملة ، وعلى إلمامه بكل مايلزم العالم المصنف في زمانه ، من علوم اللغة والنحو والقرآن والحديث والأدب .

٧ ـ ولعل (المثل السائر) أهمُّ ما خلف لنا ابنُ الأثير من تراث ، وقد لقي ترحاباً ونقداً منذ أُمْلِيَ في حياةِ مؤلفه ، فلقد روى ابنُ خلكان « أنّه من التصانيف الدالة على فضله وتحقيق نبله ، وهو في مجلدين ، جمع فيه فأوعب ، ولم يترك شيئا يتعلق بفن الكتابة إلاّ ذكره ، ولما فرغ من تصنيفه كتبه الناس عنه ، فوصلت الى بغداد نسخةٌ منه » .[١٢]

يتضمن الكتاب [١٣] البحث في علم البلاغة والنقد لصناعة الكاتب والشاعر . وقد بني على مقدمة ومقالتين . فالمقدمة تشتمل على أصول علم البيان ، والمقالتان تشتملان على فروعه .

تقع المقدمة في عشرة فصول تناول فيها علم البيان وما ينبغي له من الأدوات ، وهي عنده ثمانية أنواع : معرفة الصرف والنحو ، ومعرفة المألوف استعماله في فصيح الكلام ، ومعرفة أمثال العرب وأيامهم ، والاطلاع على تآليف المتقدمين من أرباب هذه الصناعة ، ومعرفة الأحكام السلطانية ، ثم حفظ القرآن والتدرب على استعماله في مطاوي الكلام ، وحفظ ما يحتاج اليه من الأخبار الواردة عن النبيّ ، ثم معرفة العروض والقوافي .

---

(١٢) ابن خلكان ، الوفيات ص ١٥٩ [وفيات الأعيان (تح الدكتور إحسان عباس) ٥ : ٣٩١ / المجلة] .

(١٣) أفدنا من التلخيص المطول الممتاز الذي عرضه بطرس البستاني في دائرة المعارف لفؤاد افرام البستاني ، المجلد الثاني ، ص ٣٢٦ و ٣٢٧ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وتبحث بعد ذلك في الحكم على المعاني ، ومعرفة أساليبها ، ثم في جوامع الكلم ، والحقيقة والمجاز ، والفصاحة والبلاغة ، وأركان الكتابة .

وتبحث المقالة الأولى في الصناعة اللفظية وهي على قسمين : الأول في اللفظة المفردة ، والثاني في الألفاظ المركبة . وجعل صناعة تأليفها على ثمانية أنواع : السجع ، والتجنيس ، والترصيع ، ولزوم مالا يلزم ، والموازنة ، واختلاف صيغ الألفاظ واتفاقها ، والمعاظلة اللفظية ، والمنافرة بين الألفاظ في السبك .

والمقالة الثانية تبحث في الصناعة المعنوية ، وهي أيضاً على قسمين : الأول في الكلام على المعاني مجملاً ، والثاني في الكلام عليها مفصّلاً . والقسم الأول على ضربين أحدهما ما يبتدعه مؤلف الكلام من غير أن يقتدي بمن سبقه ، والآخر ما يحتذي فيه مثالاً سابقاً ومنهجاً مطروحاً .

والقسم الثاني ، بناه على ثلاثين نوعاً كالتشبيه ، والاستعارة ، والتجريد ، والالتفات ، والتقديم والتأخير ، والايجاز ، والاطناب ، والارصاد ، والكناية ، والسرقات الشعرية ، وسوى ذلك ... وهو كغيره من المتقدمين لم يفصل المعاني عن البيان ، ولا فصل البديع عنها ، لأن التميز بين هذه العلوم الثلاثة إنما تمّ مع ظهور كتاب (المفتاح) للسكّاكي .

٨ ـ وفي هذه المباحث شعرٌ ورسائلُ وآياتٌ وأحاديث ، وكثيراً ما يورد من وسائله مقاطع ، ويجعلها أمثلةً للبلاغة في النوع الذي يبحث فيه ، ويُعْنى بتحليل معانيها ، وتنبيه القارئ إلى النظر إليها فيقول مثلاً : « فتأمل ما أوردته ها هنا من هذين المثالين ، وانسج على منوالها فيما تقصده من المعاني التي تبني عليها كتبك ، فان ذلك من دقائق

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الصناعة[١٤] » .

وقد يستشهد بأقوال غيره من الكتاب ليطعن فيها ويزدريها كما فعل بالحريري وابن نباته ، فانه عاب سجعها الذي يكرر المعنى في الفقرتين ، ثم يورد من كلامه أمثلة من السجع كما ينبغي أن يكون قائلاً : « فانظر ايّها المتأمل إلى هذه الأسجاع جميعها وأعطها حق النظر ، حتى تعلم أنّ كلّ واحدة منها تختص بمعنى ليس في أختها التي تليها . وكذلك فليكن السجع وإلاّ فلا » .[١٥]

ويذكر في كلامه على البلاغة ، أقوالَ من تقدمه من علماء البيان ويظهر خطأها وضعف مدلولها ، وقصر نظرهم فيها . واذا ذكر أقواله أدلّ بها على غيره ، وزعم أنه استنبطها ، وفتح كنوزها ، ولم يُسبَق اليها .

ومثل هذه الأشياء كثيرة في (المثل السائر) ، تصور أدق تصوير كبرياء مؤلفه ، وتدل على علم صحيح ، وذكاء متوقد ، وقوة استنتاج . إلاّ أنه كان يفرط في المخالفة ، لما فيه من حب المعارضة ، والاعتداد بالنفس ، فما يأمن من الزلل .

٩ ـ شخصية ضياء الدين بارزة في إنشائه ، فأنت في الكثير من صفحات الكتاب ، تلقاه « محدثاً » عن نفسه ، ينبه إلى آرائه ، ويدل بصحة علمه وقوة استنباطه ، يقول : « وهداني اللهُ لابتداع أشياء لم تكن قبلي مبتدعَة ، ومنحني درجة الاجتهاد التي لا تكون أقوالُها تابعة ، وإنما هي متبعة . ولقد مارستُ الكتابة ممارسةً كشفت لي عن أسرارها ،

---

(١٤) المثل السائر جـ ٢ ص ١١٥ .

(١٥) فصل السجع من المقالة الأولى ، الجزء الأول ص ٣١٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وأظفرتني بكنوز جواهرها ، إذ لم يظفر غيري بأحجارها[١٦] . »

ولم يسلم المتنبي ، ولا المعري من سلاطة لسانه فانتقدهما ، وكان تجاه الثاني قاسياً جداً ، لأنه (أي المعري) كان يتعصب لأبي الطيب ، فيقول مستطرداً أثناء نقده بيت المتنبي :

فلم يُبْرَم الأمرُ الذي هو حالٌ ولا يُحْلَلُ الأمرُ الذي هو يُبرم

« فياليت شعري ، أما وقف على هذا البيت المشار اليه ؟ ولكنّ الهوى ، كما يقال ، أعمى ، وكان أبو العلاء أعمى العين خلقةً ، وأعماها عصبيةً ، فاجتمع له العمى من جهتين » .[١٧]

١٠ ـ هذا الكبر الذي وصل إلى حد الغرور كان آفته في حياته السياسية ، لأن الناس كرهوه فأرادوا قتله أكثر من مرة ، وكان سبب الهجوم القاسي عليه أدبياً ، فابنُ أبي الحديد يهاجمه في كتابه (الفلك الدائر على المثل السائر) مهاجمة سليطة اللسان ، دعت أنصاراً له إلى الرد عليه ، وتفضيل كتابه . فقد تعصب (للمَثَل) جماعةٌمن أكابر الموصل وفضلوه ، على كثير من الكتب المصنفة في هذا الفن ، وتلقاه أهل بغداد بالاعجاب وتداولوه ونقلوه .

وقامت معركة أدبية كان من نتاجها كتبٌ في الرد على ابن أبي الحديد ، وفي الانتصار له ، فصنّف بعضُهم (الروضَ الزاهر في محاسن المثل السائر) ، وصنف أبو القاسم السنجاري (كتاب نشر المثل السائر وطيّ الفلك الدائر) كما صنف صلاح الدين الصفدي (نصرة الثائر على

---

(١٦) مقال بطرس البستاني ـ المصدر السابق ص ٣٢٧ .

(١٧) مقال بطرس البستاني ـ المصدر السابق / الصفحة نفسها ، ولم يذكر الصفحة المقتبسة هذه الفقرة منها [أورد ضياء الدين ابن الأثير عبارته تلك في النوع الثامن : في المنافرة بين الألفاظ في السبك ـ انظر المثل السائر ١ : ٣٠٥ ـ ٣٠٦ (ط . محي الدين عبد الحميد ـ القاهرة ١٩٣٩ م) / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المثل السائر) وصنف عبد العزيز بن عيسى رسالة (قطع الدابر عن الفلك الدائر)[١٨] .

ولم يلق واحدٌ من هذه الكتب مالقيَ المثلُ السائر من استحسان ، وضاع أكثرها في رمال النسيان ، وبقي المثل السائر علماً بين الكتب لأنه « لا يزال إلى أيامنا هذه في مقدمة كتب البلاغة التي يرجع اليها . فقد أوضح فيه ضياء الدين معالمها ، وأحكم الكلام على فنون الانشاء ، ورتب فصوله وأنواعه ، وبين أصوله وفروعه ، ودقق في جمال اللفظ المفرد والمركب ، فكان كتابه هداية لما أُلف بعده من الكتب في علم البيان ».[١٩]

١١ ـ والمثلُ السائر ، قَبل كل شيء ، كتابٌ بلاغي عرض فيه ابنُ الأثير لموضوع علم البيان بعد أن وسَّع معناه لصبح مرادفاً لمعنى كلمة البلاغة ، فتحدث عن البلاغة والفصاحة وما يلزم لمعرفتها ، وتحدث في المقالة الأولى عن الصناعة اللفظية في الكلمة المفردة ، والألفاظ المركبة ، وتحدث في المقالة الثانية عن الصناعة المعنوية وهو يكثر فيها من ضرب الأمثلة والشواهد يقتبسها من القرآن الكريم ، والحديث الشريف ، والشعر العربي ، ورسائل الفصحاء ، وخطب الخطباء ، ومن رسائله هو بالذات ، معلقاً عليها ، ومبيناً فيها جوانب الجمال أو جوانب القبح .

فالمثل السائر بصفة عامة محاولةٌ لتنظيم ما كان البلاغيون قبله قد نثروه في كتبهم ، مع بعض التفريعات والنظرات الجديدة ، ومع العناية بفن الرسائل . وإذا ما بدا في تنظيمه شيء من الاضطراب ، فان الكتاب يبقى على كل حال « خيرَ ما كُتِب منذ القرن السادس الهجري ، بعيداً

(١٨) مقال بطرس البستاني ـ دائرة المعارف لفؤاد افرام البستاني ، مج ٢ ص ٣٢٧ .
(١٩) مقال البستاني ـ المصدر السابق / الصفحة نفسها .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

عن مدرسة عبد القاهر الجرجاني وتلاميذه ، ولما يتخلله من بعض لفتات جيدة » .[٢٠] « كذلك كان المثل السائر آخر الكتب التي يتمتع صاحبها بذوق أدبيّ ، ذلك أنّ علماء البلاغة تقيدوا بما كان السكاكي قد لخصه في (المفتاح) فانقلبت البلاغة الى قواعد جافة جامدة كقواعد النحو والصرف مع غير قليل من العسر والالتواء ، حتى لتوضع لها الشروح تلو الشروح » .[٢١]

١٢ ـ وابن الاثير ، في مثله السائر ناقد كبير تكلم فيه « عن المؤلف شاعراً وكاتباً ، وأثر تكوينه في عمله »[٢٢] ، فشبه الموهبة الكامنة لدى الشاعر الموهوب أو الكاتب المبدع بالنار الكامنة ، وتحدث عن النص الأدبي ، وفيه استغرق كل آرائه النقدية كغيره من علماء البلاغة ، وتكلم عن الصياغة من جوانبها المختلفة ، وعن موقفه الخاص بين النثر والشعر ، فلقد انتصرَ للكتابة ، وعللّ تفضيله لها بأسباب عديدة منها أنّ القرآن نص نثريّ ، وأن الإعجاز متصل بالنثر ، وأنّ الكتابة أصعبُ طريقاً ، وأن الكاتب أحدُ دعامتي الدولة التي تقوم على السيف والقلم .... وكان له كذلك موقفه من الكتاب والشعراء ، فحمل على الصابي ، وأبدى عدم إعجابه بكتابته ، كما حمل على الحريري في مقاماته ، وغمز من قناة صديقه القاضي الفاضل وأخذ عليه التقصير أحياناً .

أمّا موقفه من الشعراء فقد كان معجباً بأبي تمام والمتنبي لأنهما جمعا بين الفن والعقل ، أو بين الصنعة والطبع ، وأعجب كذلك بالبحتريّ ، وبآخرين ولم يكن منحازاً ، في معركة القديم والحديث ، لأيٍّ من

---

(٢٠) شوقي ضيف ، البلاغة تطور وتاريخ ص ٣٣٤ ـ ٣٣٥ .

(٢١) شوقي ضيف ، المصدر السابق ص ٣٧٤ .

(٢٢) طلبات ، المصدر السابق ص٥٨ و ٥٩ و ٦٠ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

الفريقين بل كان يحكم على الشعر ، قديمه وحديثه ، بما له أو عليه ، وإن كان أكثرَ ميلاً الى معاني المحدَثين وجمال صنعتهم[٢٣] .

١٣ ـ ولابن الأثير فيما ترك لنا أسلوبان : أسلوبُه في رسائله وهو فيه ملتزمٌ السجعَ ، والمحسنات البديعية ، فهو يقول في وصف معركة : « ولما التقى الجمعان ، اصطفت يمين وشمال ، وزحفت جبال الى جبال ، وكثرت النفوس على المنايا حتى كادت لاتفي بالآجال ، وأقدمت الخيل إقدام فرسانها ، واظلم النقع فلا تبصر الا بآذانها ، ونالت النحورُ ثارَها من كعوب الرماح ، واشتبكت فلا طريق بينها لمهب الرياح »[٢٤] .

أمّا في المثل السائر فما نمر بسجع أو وَشْيٍ إلاّ عَرَضاً ، فإنشاؤه فيه مطبوع سهل العبارة ، واضحُ الاسلوب ، بريء من التعقيد والإغراب ، ويغلب عليه الاسهاب والتفصيل ، فكأنه أستاذ يعنى بشرح درسه ، ليجعله مفهوماً ، قريباً من الأذهان[٢٥] .

يقول مثلاً[٢٦] : « واما الإرداف فانه ضربٌ من اللفظ المركب ، إلاّ أنه اختصَ بصفة تخصه ، وهي أن تكون الكناية دليلاً على المَكْنَى عنه ولازمةً له ، بخلافِ غيرِها من الكنايات ، ألا ترى أنّ طول النجاد دليلٌ على طول القامة ولازم له ، وكذلك يقال فلان عظيم الرماد ، أي كثير إطعام الطعام ، وعليه ورد قول الأعرابية في حديث أم زَرْع في وصف زوجها : له إبل قليلات المسارح ، كثيرات المبارك ، اذا سمعن صوت

---

(٢٣) طليات المصدر السابق ص ٦٩ ـ ٧٠ .

(٢٤) من رسالة له ، سجلها طليات ، المصدر السابق ص ٧٦ .

(٢٥) مقال البستاني ـ المصدر السابق ص ٣٢٧ .

(٢٦) المثل السائر ـ طبعة الحوفي وزميله جـ ٣ ص ٦٠ [٢ : ٢٠٠ ـ ٢٠١ / ط محيي الدين عبد الحميد / المجلة] .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

المزهر ، أيقنّ أنهن هوالك » .

١٤ ـ ابن الأثير ضياء الدين ،الأديب ، والناقد ، وعالم البلاغة ، شخصية فذة في تاريخ أدبنا العربي ، بما تركت من مؤلفات قيمة ، كان المثل السائر أرفعَها قيمة وأسماها منزلة . ولقد كان للكتاب وصاحبه الأثرُ الذي يُذكَر فيشكَر . والشهرة الأدبية طغت على شهرته السياسية ، فعُرِف بعلوم البلاغة والبيان أكثرَ مما عرف بالوزارة والديوان . قال فيه استاذنا التنوخيُّ عِزُّ الدين علم الدين ، سيّدُ من عَرَف البلاغة وعرّف بها في القرن العشرين ، في موسوعته المشهورة (تهذيب إيضاح القزويني) .

قال رحمه الله في المقالة التي كتبها في المجلد الخامس والثلاثين من مجلة المجمع [٢٧] تعريفاً بكتاب ابن الأثير (الجامع الكبير في صناعة المنظوم والمنثور) : « ولا أعرف أديباً له رأي في البيان وأساليبه ، الاّ وللمثل السائر أثرٌ مبين في تقويم أسلوبه ، وإرشاده الى وسائل الملكة العربية ، ففيه من أصول (فن الكتابة) ما يكتبه علماء الانشاء الغربيون للشداة في الكتابة ليبينوا لهم أخصر الطرق وأقرب الوسائل ، لتحصيل ملكة الكتابة في لغاتهم » .

---

(٢٧) عز الدين التنوخي ، مجلة المجمع العلمي العربي . المجلد ٣٥ سنة ١٩٦٠ ص ٦٦٦ ـ ٦٦٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net